الحقيقة لدى التفكير الأميركي

"العقل التقني بلا إيمان"

محمد سعيد مزوار[1]

منذ بداية القرن الواحد والعشرين، وقبل هذه النقطة الزمنية بحوالي عشر سنين، اخترقت القوة العظمى في العالم، العالم بأسره، وأصبحت عبوات الكوكاكولا تصل حتى غابات الغابون، ووصلت موسيقى الروك حتى آخر صيني في أغوار سهوب التبت وجبالها، فلابد من أن يقف الفيلسوف لحظة، يجعل من أفكاره

بمثابة المطرقة التي تحاول فهم ماهية الكيفية التي تنتشر بها آلية الحياة الأميركية في كل مكان، حتى أنها بلغت كافة الأرجاء والزوايا في هذا العالم، وبالتالي على الإنسان أن يعود إلى مكمن المخابر الفلسفية للكشف عن ما هو ذري مستتر، يخفى على الكثيرين، ولكنه يحركهم.

لقد تفوق العقل الأميركي على عقول كثيرة شهد لها التاريخ بذكائها الحاد، وقد بلغ هذا العقل الجديد قمة التحدي، وهو يصنع أرضيات تقبل بثقافته الفتية، وقد سخر لها المادة التي تتضمن التقبل، والتي من شأنها كفاية السيطرة بلا منازع، سواء على طريقة أثينا الفنية، أو على طريقة إسبارطة القوية، جاعلا من كل الاحتمالات عبارة عن سيناريوهات لا تخدم سوى أرض الشجعان، أميركا بلا منافس حقيقيّ قادر على المنافسة. ما حقيقة العقل الأميركي؟ ما حقيقة الثقافة الأميركية؟ وما حقيقة الحقيقة الأميركية؟

لقد حولت الولايات المتحدة الأميركية الثقافة كقضية إلى نقيضها تماما، إذ أنّ تلك النظرية التي عند المنظومة الغربية منذ الإغريق وحتى القرن الثامن عشر، والقائلة بأنّ العقل هو وليد البيئة المنغرس فيها، يأخذ الصور من الحس المباشر، أو يعطي الصور الوليدة للحس، هي غير نافذة الوقوع في أميركا، بل أنها نظّرت لعمليات عقلية جديدة، استندت إلى مؤشرات عملية وأخذت التكييف بلا تكيّف نموذجها القوي ثقافيا وفلسفيا. "... ومن

أجل أن نفهم كيف أن انتشار طراز الحياة الأميركية (وأوهامها) كان أحد الأسباب الرئيسة في تفكك الأخلاق والفنون، من الضروري أن نحدد المشكلة ضمن منظور التاريخ الأميركي، لأن انحطاط الثقافة، التي لا تلعب أيّ دور منظم في حياة المجتمع، ينجم عن تشكل الولايات المتحدة وتاريخها... "[2]

اعتادت الثقافة أن تتكون في بيئة ملائمة، وهي تنشد الخصوصية والتميّز، لكن الثقافة الأميركية هي تنشد التعميم والتسليم، وهي راجعة إلى عدّة عوامل، لعلّ أهمها هي تلك التي تنبع من نمط تشكل هذا الجسم الأداتي العملاق، لأنّ الثقافات هي ذات مصدر آلي إلى حد كبير، وبعيدا عن النموذج الأنثروبولوجي يمكنني القول بأنّ هناك جانبا من نظام العلية يحكم سيرورة الثقافة عبر مظاهرها، ورغم تعدد هذه الأخيرة، إلاّ أنها ترجع إلى مصدر واحد، هي علة العلل، ومحرك كافة المظاهر الثقافية للثقافة الواحدة، إذ يتمثل في نقطة البدء، نقطة انطلاق المشروع الثقافي لدا أي شعب أو جمهور، مهما كانت مميزاته وخصائصه، وهذا ما ينطبق على الولايات المتحدة الأميركية كسائر الثقافات الأخرى في هذا العالم، والتي تعود إلى نقطة الصفر، حين أعلنت بأنها ثقافة، قائمة على ذاتها بذاتها.

"... لعبت الثقافة والأيديولوجيات دائما دورا هاما في الحياة السياسية الأوربية، سواء في عصر سيادة النفوذ المسيحي، أو عصر الأنوار، أو زمن الثورة الفرنسية، أو قرن القوميات والقومية–الماركسية وثورة أكتوبر في روسيا... "[3]

لدا الغرب عموما فإنّ الثقافة على العموم أيضا لعبت دورا منظما، كانت في أغلب الحالات ترتكز على مرجعية محددة، إما على الدين في مساحة زمن العصور الوسطى، وإما على الفلسفة في عصر الأنوار، وإما على الأيديولوجيات كما حدث مع القومية أو الماركسية، ومع ذلك؛ ومع تعدد كما اختلاف المرجعيات الثقافية، بقي لهذه الأخيرة حضورها، وقد أصبحت حقيقة الفرنسي أو الفرد الجرماني، هي تلك البرمجة التي لُقنت له عبر تقنيات مختلفة، مما جعل هذا الفرد الإنساني كائنا ثقافيا، متميزا في سلوكه، نمط عيشه، ويُظهر نفس التصرفات الخاصة به

في كافة أصقاع العالم، فبالإمكان تمييز الفرد الانجليزي عن غيره ولو كان في أدغال أفريقيا، ليس ببشرته فحسب، وإنما يمكن ذلك عبر الأخذ بالحسبان، ما يصدر عنه من أفعال وردودها، طبقا لما يحركه من بلادة ورصانة، غُرست فيه منذ صغره، كما هو منصوص عليه في قيمه وما إلى ذلك من مظاهر ثقافته الانجليزية العريقة. هذه النموذجية للثقافة ما يميّز أوربا وشعوبها، وجعل أفرادها يؤكدون بفخر الانتساب إلى هذه الثقافة أو تلك، إنها حقيقة أوربا التي جعلت الثقافة محركا للحياة، وهو ما خدم الثقافات الأوربية بشكل كبير، إذ أنه حفظها من التبديل كما التغيير الجذري، وإن طال أجزاء مختلفة منها، إلا أنها بقيت على اتجاه أصالتها لا تحيد عنها.

"... أما في أميركا، وخارج نطاق السكان الأصليين الهنود، ممن كانت ثقافتهم العالية تنظم العلاقات الاجتماعية (كما لدى الإنكا INCA) والذين قتل 80% منهم في حملة الإبادة العنصرية الكبرى، وأُبعد الباقون، وهمشوا، وحصروا أخيرا في أراضي معزولة، فإنّ جميع الأناس الآخرين الذين يسكنون الولايات المتحدة هم من المهاجرين... "[4]

المظاهر الثقافية التي سادت أوربا ليست هي المظاهر التي وقعت في أميركا، وهي أولى نقاط الاختلاف بين المساحتيْن الثقافيتيْن.

في أميركا هناك اتجاهيْن متمايزيْن للثقافة، أوّلهما هو ذاك الذي ساد في أوساط السكان الأصليين الذين سماهم الغزاة الأوربيين بـ: "الهنود الحمر"، وهذا الاتجاه الثقافي وإن كان بدائيا، إلاّ أنه قائم على تميّز واضح في التنظيم، في علاقاته المختلفة بين أعضائه، كما أنه متفرّد بشكل خاص في معاملاته مع الآخرين، وهو بذلك يجعل المرجعية الثقافية هي المحرّك، إذ يتطابق هذا التصوّر من حيث العودة إلى الخلفية المحرِّكة للثقافة، مع ما هو موجود في أوربا مع اختلاف في كيفيات التعبير عن هذه الخلفية.

أما الاتجاه الثاني هو الاتجاه المسيطر والقوي، هو ذاك الذي جاء من أماكن مختلفة وحمل أركان ثقافات مختلفة إلى الأرض الأميركية، هو اتجاه المهاجرين، هؤلاء الذين أسسوا لثقافة أميركية معتبرة، تختلف عن المرجعية التقليدية، بحكم أنّ المرجعيات هي تنصهر في قالب واحد يدعى بـ: أميركا، وبهذا كان لهذا الاتجاه الثقافي الجديد؛ صفة خاصة به وحده، تلك التي تمثلت في مقدرته على إدارة ثقافات مختلفة عبر استيعابها وقيادتها، وهو ما سهّل عليه التعامل مع أيّ كان، وتكييف أيّ فرد في إطار منظوره الثقافي العام. "... وأيا كان أصلهم وثقافاتهم الأولى، فقد وفدوا بشكل رئيس للبحث عن عمل، وكسب المال، وسواء كانوا ايرلنديين أو ايطاليين، أو عبيدا سودا أحضروا إلى كافة الأرجاء الأميركية، أو مكسيكيين أو برتوريكيين، فإنّ لكل فئة منهم ديانتها، وثقافتها، ولكن ما من ديانة أو ثقافة يشترك بها الجميع، والرابطة الوحيدة التي تجمعهم تماثل تلك التي تجمع العاملين في مؤسسة ما... "[5]

المهاجرين إلى أميركا وفدوا إليها لضرورات اقتصادية، وهذا ما جعلهم يقصدونها بسبب هدف مادي، لكن هذا الأخير لم يمنعهم من حمل حمولاتهم المعنوية، تلك التي تمثلت في دياناتهم وثقافاتهم، ليتأسس المعنوي على المادي، فكان لكل فرد أو جماعة ما يميّزها، في حدود الجماعة أو على حدود الفرد ذاته، دون أن يتعدى قدراتها ومجالاتها التي كانت تدور في فلكها إلى امتداد جديد، وحتى ولو تمّ هذا التمدد، فإنه سيكون في الغالب حاملا لتكلفة زائدة، تلك التي تصدر عن التقاء المؤثّر بالمؤثَر عليه، إنها مميّزات خاصة لخصوصيات منعزلة، إذ أنّ ما يجمع المهاجرين هؤلاء ليست ثقافة، ديانة أو أيديولوجية، وإنما يجمعهم "البحث عن الرزق أو الثروة"، وبالتالي جامعهم هي القيمة المادية، وهي تطرح الكثير من عدم الضمانات لاستمرارية التوثيق الذي يبني الصلة فيما بينهم، لأنّ الصلات القائمة على الأهداف المادية، هي تزول بزوال هذه الأهداف، أو ببلوغها مهما كان ذلك طويلا أو بعيد التحقيق. ومن هذا تعامل الأفراد المهاجرين إلى أميركا مع بعضهم كعمال باحثين عن رواتب، وسرعان ما تنفك هذه الرابطة، عندما يتسلمون ما هم يعملون ويسافرون من أجله، ألا وهو: المال.

"... والولايات المتحدة منطقة إنتاج تديرها المنطقية التقنية أو التجارية فقط، حيث يساهم كل فرد كمنتج أو كمستهلك، متطلّعا إلى هدف وحيد، وهو الزيادة الكمية لرفاهه، وكل هوية شخصية ثقافية أو روحية أو دينية، تعدّ قضية خاصة، فرديّة حصرا، لا علاقة لها في تشغيل النظام... "[6]

غياب العامل الروحي كأرضية مشتركة بين الأميركيين، واجتماعهم على هدف مادي، هو الأمر الذي من شأنه أن يكون كافيا مؤقتا للمّ شمل عدد كبير ومختلف من البشر في بقعة أرضية واحدة، هذا الهدف المادي يجعل من القسمات الروحية المتمايزة لدا الأفراد تنحصر في حدود معينة، فتنكفئ حول مجالها، مشكلة بذلك منطقا خاصا، في ظلّ أنّ المنطق العام هو مستورد من قبل التقنية المنتجة أو الاستهلاكية القابلة للتغيّر بتغيّر مصالح السوق وتقلباتها، ومنه فإنّ الثقافة لم تعد قضية للشأن والصالح العام، بقدر ما أصبحت مسألة متعلقة بكيان الفرد وشخصيته التي يختار كيف يعبّر عنها ذاتيا، هذا ما يفسّر آلية التعامل الأميركي في الداخل والخارج، مع نفس المنظومة أو مع غيرها، إنه خاضع لوجهيْن من التقبّل والاتصال، إذ أنّ السلوك والتصرفات كأفعال هي حذرة تراعي أطراف الذات بالذوات الأخرى، في حين أنّ سلوك الذات مع ذاتيتها هي تتحرك وفق الثقافة، وعلى الرغم من عدم سيطرة هذه الأخيرة عليها كليا، إلاّ أنها لا تتعداها، هنا تظهر المسائل المعنوية ضمن نطاق مقلّم للغاية، إذ أنّ المنظومة الغربية ذات الطابع الأوربي، هي تحمل ثقافة روحية بالأساس، وحتى الماديين على طريقة كارل ماركس، كان لهم مقابل روحي أيضا، وهو الذي تمثل في هيغل على سبيل الحصر، في حين أنّ الأميركيين ينطلقون في اجتماعهم من المادة (العمل)، ويصلون إليها (تقنيات التأدية العمل)، وعليه فإنّ المسألة المعنوية هي غائبة بشكل إجمالي عن الصالح العام في أميركا، إنها ثقافة مادية المادة.

"... وانطلاقا من أمثال هذه البنيات الاجتماعية، فإنّ الإيمان، الإيمان بمعنى الحياة، لا يمكن أن يعيش إلاّ في بعض الجماعات التي حافظت على هوية ثقافاتها القديمة، أو لدى بعض الأفراد البواسل. أما الأغلبية العظمى من هذا الشعب، فإنّ الله قد مات، لأنّ الإنسان قد بُتر فيها من بعده الإلهي: السعي إلى معنى الحياة. وخلا المكان

آنئذ لتكاثر الملل والخرافات المتطيّرة، وتهريب المخدّرات أو الشاشة الصغيرة، وغطي كل ذلك بتزمت رسمي يتكيّف مع جميع التباينات والتفرقات وجميع المذابح، بل ويستخدم لتبريرها... "[7]

يصبح العنصر المادي هو المهيمن على الثقافة الأميركية، وتصير الحقيقة متعلقة بالمادة على الأكثر، ومادية المادية في الحد الأدنى.

لقد حُدد معنى الحياة في بعدها المعنوي منذ أمد بعيد، ذاك الذي ينهل من الديانات، الفلسفات أو الأساطير، إنّه البعد الإلهي والإعتقادي في الإنسان، ومنه تكون هذه المساحة الميتافيزيقية أهمّ عوامل إبقاء الإنسان ضمن حركته الذاتية العميقة، خاصة وأنّ الإنسان كجسد هو بحاجة إلى غذاء روحي، وإن لم يجده في البعد الإلهي، فإنّه سيشتغل على ملء هذا الفراغ بأمور هجينة، بعيدة عن التغذية الروحية المعتادة والتي تخرج من الفطرة، جاعلا من هذه العملية قضية كمية، وهذا ما وقع ويقع للأميركيين رغم وجود بعض الاستثناءات، إذ أنهم فقدوا معنى الحياة بفقدان مستلزمات أرواحهم، وبهذا تكون الانحرافات هي تبريرات لتلك المساحات الشاغرة من حياتهم الجماعية العامة.

"... كشف توكفيل الملاحظ الأوّل للولايات المتحدة، والأكثر بعد نظر، منذ عام 1840م، في كتابه (الديمقراطية في أميركا) جوهر هذه الآلية، وهي ما تزال في طور الإنشاء فقال: لا أعرف شعبا يحتل فيه حب المال أكبر مكان في قلوب الرجال كهذا الشعب. إنه تراكم مغامرين ومضاربين... "[8]

كلّ هذا هو تأكيد على أنّ العامل المادي وحده غير كاف من أجل إدارة الحياة، وهذا ما لم يتم في الأسواق هو الحال الطاغي على ما يساهم به الأفراد في أميركا، إذ أنّ التاريخ يذهب إلى أن يقصّ بأنّ التحقيق المادي الفزيائي ما هو سوى امتداد لتحقيق الروح، وإن غاب الأخير، طغى الأوّل بطريقة متوحشة، حتى على الإنسان

الصانع له، وهذا ما يؤدّي إلى الانحطاط والزوال، بينما في أميركا تحوّل العنصر المادي إلى هدف، فتمّ تجنيد بقية العالم لخدمة هذه المصلحة، هو يدمّر العالم من أجل زرقة عيون أميركا.

عندما يبحث المحيط المشترك عن قضية مادية، فإنّ ذلك يشير إلى مدى جدية طرحهم حول قدرة هذه الماهية الصلبة على التمرن قصد إرساء وسائط ومسالك مع غيرها، وبالتالي فإنّ إرجاء القصة الحقيقية لتمكّن الصاعقة الذرية من إنشاء مجالها القاسي، هو ما يطلبه العمل الجاهز من أجل إرساء قواعد القوة، إثر محاولة ضمان إصدار حكم بالبقاء عند التحام البعض مع مواد أخرى، فعلى إحداها أن تزول، وبالتالي على أميركا عدم الوصول إلى عتبة الزوال، حتى ولو على حساب كل ما له علاقة بالجانب الروحي الجوهري.

"... فمن وجهة نظر العلاقات مع الطبيعة، لم يكن "للحدود" خلال أكثر من قرن ذات معنى الشائع في أوربا: إنما هي مكان مفتوح دائما حتى نهاية القرن التاسع عشر، عندما تمّ الوصول إلى المحيط الهادئ، وأعلن عند ذاك رسميا عن (إغلاق الحدود). هذا المكان المفتوح كان عرضة لكلّ أعمال السلب والنهب، وجميع مظاهر التخريب: تخريب الغابات وقطعان البقر الوحشي، إلى جانب البحث المدمّر عن مناجم الذهب والفضة... "[9]

لقد أدّت العلاقات القائمة على كيفيات زيادة الأرباح المادية، وخلال قدر كبير في زمن إعادة المادة إلى كل المعاملات، أدّى هذا إلى سيطرة مواد مختلفة على مواد أخرى، حتى الحيوانات لم تسلم من تسلط المال، فكانت كل الأمور مستباحة في ظل البحث عن الذهب والفضة، وهذا ما هو قائم على سداد الاتجاهات باتجاه المواد المتماسكة، من أجل تفكيكها، وإن لم يتم ذلك فهدمها قصد بيعها والاستفادة منها من أجل تعبئة المجال أو الرصيد المالي.

تمّ فتح الحدود الأميركية من أجل بلوغ المعادن الغالية، ولقد أصبحت كلّ المساحات المحتملة لوجود هذه التركيبة المربحة مناطق تجارب توقد القادرين على الوصول إليها من كافة الأمكنة والسبل، وبهذا تجدر الإشارة إلى أنّ الطبيعة لم تعد لها روح عند الأميركيين، وإن لم تكن مربحة فإنها تُدمّر من أجل صناعة ربح ما.

لم تعد علاقة الأميركي مع الطبيعة مثلما هي علاقة الأفريقي أو الآسيوي أو الأوربي، وإنما تحوّلت من علاقة خضوع أو تحدي إلى علاقة استفادة وتحكّم؛ هذا ما جعل أميركا أوّل مستثمر للعناصر الحية في التاريخ، حكمت هذه العلاقة لغة واحدة، تلك المتمثلة في كيف نجني ربحا؟! وبأكبر قدر ممكن من الطبيعة.

"... وكانت العلاقات مع البشر الآخرين من طبيعة خاصة أيضا، مطاردة الهنود أوّلا للاستيلاء على أراضيهم دون أن يترك لهم إلا اختيار الإبادة الجماعية، أو الانحباس في (أرض ذات نظام خاص: محمية)، وتلا ذلك سيادة شريعة الغاب بين البيض أنفسهم للاستيلاء على الثروات المسروقة من الهنود، وعلى أراضيهم والذهب المؤمّل استخراجه منها... "[10]

لم تسيطر المادة على الإنسان الجماعي بروحه المشتركة فحسب في أميركا، بل امتدت إلى الطبيعة من ناحية، والعلاقات البشرية من ناحية أخرى مخالفة، خاصة تلك المتعلقة بمعاملة الأميركي للآخر، فكانت الحوادث المؤلمة التي ألمت بالهنود الحمر، ما هي إلا دليل على تغلغل سيادة الربح على كل الاعتبارات، وقد بلغ مفهوم الاستغلال درجاته القصوى، إضافة إلى أنه ظهر ذلك في علاقة الأميركيين أنفسهم فيما بينهم؛ فبعد التخلص أو تحييد الهنود، ذهب بعضهم إلى محاولة انتهاج سلوك السيطرة والانفراد بالسيطرة التامة على الموارد ذات الدخل المستمر، وقد لعبت الأنانية دورها في هذا المجال، وعلى هذا الأساس، عادت الصراعات إلى الواجهة، وتمكن القوي من أخذ ما لدى الضعيف، كل هذا من أجل جني الأرباح، وإعلاء شأن الربح المالي مهما كان مكلفا.

التمسك بالمعطى المادي في كافة العلاقات على اختلافها هو ينحوا منحى الجشع المطلق، وهو يغذي هذه المسالك الصعبة في تأطير حياة الإنسان، على الرغم من تمركز جانب روحي فيه، إلاّ أنّ تغليب المعطى الهيولاني هو قد يؤدي إلى انكماش الروح البشرية، خاصة الإمعان في هذه الزاوية، قد تفيد بأنّ العامل الإنساني هو محصور في جانب واحد منه، هو الجانب الجسمي الفيزيائي دون غيره.

"... أمّا معنى الحياة، فقد اختزل إلى ذلك التوسع الكمّي في التملك، أو في حيازة الأرض وكنوزها. (الغَرْبَة) (Western) وحياة (الغرب البعيد) (Farwest)، عدا استثناءات قليلة، مثار حماس تلك الملحمة العنصرية، وذلك البسط لقانون أكثر قوة في حرب الجميع ضد الجميع، ولم يلعب التزمت المسيحي أي دور في العلاقات الاجتماعية الحقيقية باستثناء دور التبرير... "[11]

فالحياة الأميركية هي بالأساس الأوّل تشير إلى سيطرة رؤوس الأموال والمادة، التجهيزات إضافة إلى الوسائل وعناصر التقنية على اليومي الفردي لدا الأميركي، ليصبح كلّ ما في هذه الحالة عبارة عن مواضيع محتملة الاستغلال قصد الاستثمار، وهذا ما يؤكد على أنّ القوة المادية هي أساس هذه الطريقة في العيش، فيطرد كل ما له صلة بالأرواح من الحياة الأميركية، ويتم استبداله بكلّ ما له صلة بغير الأرواح، وهذا ما يلزم عنه عدم التقيّد بأهمية الروح، سوى إن كان لهذه الأخيرة ثمن بالإمكان الاستفادة منه.

لقد أسس هذا النمط الجديد من الحياة على إقبال مستفيض على العلاقات كشبكة من حروب معلنة، وعلى اختلاف المؤثرات، فإنها صبّت في هذه الإشكالية، فقد حلّ الصدام محل الحوار، وتمّ اقتناص الإلهيات على أنها غنائم، وتمّ استيراد وتصدير كل ما له علاقة بالمادة الحربية، كلّ هذا من أجل إثبات أحقية الغلبة في تسيير مضامين العيش، قد تكون حياة راعي البقر في تكساس أبلغ الصور للتعبير عن الحياة الأميركية الجديدة، فالمعنى قد ذاب في المبنى، وكلما كان هذا الأخير أقوى، كان الأوّل أصلب؛ لغة لم يعتدها العنصر البشري، ذاك الذي تعلق بالروح

لمدة طويلة من تاريخه، وبهذا تكون أميركا قالبا جديدا يؤسس لقواعد إدارية جديدة، لا تتعاطى مع الشروط المعيشية، وإنما تفرضها.

"... فالعنف الأكثر دموية، وكفالته بتظاهر ديني منافق، هو السمة الدائمة لتاريخ الولايات المتحدة منذ نشأتها، فالطهريون المتزمتون الانجليز الأوائل الذين رسوا في أميركا، حملوا إليها الاعتقاد الأكثر إثما في تاريخ البشرية: اعتقاد (الشعب المختار) الذي يقرّ شرعا (كأوامر من الله) إبادة السكان الأصليين، وسرقة أراضيهم، وفق نموذج سِفر يشوع التوراتي حيث يكلّف (رب الجنود) بمهمة ذبح سكان كنعان الأوائل والاستيلاء على أراضيهم... "[12]

هذا ما يجعل الإنسان يفهم أولى بشعائر الاعتقاد بالمادة، واستثمار الجانب الروحاني لصالح المادة، إذ أنّ إعطاء الأفضلية وشرعية التفوق في استغلال سافر للديانات والمعتقدات، هو ما يزيد من صعوبة تفكيك هذه المادة بغطاء اللا-وعي في الفرد الإنساني، مما يمكن الفرد الإنساني من الأخذ بأسباب الاكتساب العام، وارتداد الصور إلى أعمق الجوانب، فتكون عملية الإقناع مكتسبة للمجال المادي ضمن دائرة محصنة للغاية.

عندما تولد المادة من فكرة فهذا أمر يسير وفق قوانين الطبيعة في تعاطي العقل معها، لكن أن تولّد المادة الفكرة المادية، وتعطيها غطاء دبلوماسيا عبر الدين، فإنّ هذه الفكرة ستسير وفق إجراءات استثنائية، مما يجعل كسرها وفق الآليات المعتادة غير متوفرا، وهذا لعدم ولادتها الطبيعية، وحينها يكون من المهم أن يأخذ الفرد الإنساني بمعاملاته وفق ما تقتضي أيّ فكرة بالاعتماد على منشئها.

إنّ الاعتماد على المادة رافق حتى الأديان العريقة السماوية في أميركا، وعلى عكس الأراضي الأخرى من العالم، فإنّ أميركا استخدمت الدين لتبرير توجهها المادي، في حين أنّ هذه الخطوة زادت من توحش المادة بطريقة مغالية للغاية.

« … Je viens de regarder dans tes yeux, O vie : j'ai vu scintiller de l'or dans tes yeux nocturnes, cette volupté a fait cesser las battements de nom cœur… »[13]

ربما لو كان الفيلسوف الألماني ينفي الحقيقة في أميركا لكان محقا، إذ أنّ أميركا تنظر إلى العالم على أنّه تحت أقدامها، وبذلك هي تؤسس لقوة سيكولوجية ضخمة، تشمل كل فرد في هذا العالم، فتعطي الانطباع على أنها "قوة لا تُقهر"، بينما دون ذلك كله فهو مقهور، وهذا ما يشدد على قرارات أميركا الهائلة للضغط على منافسيها، ولتؤسس لقدرة لم يشهدها التاريخ البشري من قبل، فهي تلغي ردود الأفعال قبل قيامها بالأفعال في حدّ ذاتها، خاصة وأنها تصنع هالة وجودية حساسة إلى حد كبير، تحيط بالجسد الأميركي، وتخز كل ما دون ذلك بعلامات الضعف والتلاشي، ليبدوا النموذج الأميركي قادرا على تقدير أفعاله وأبعادها، وهذا ما يجعله يلعب أدوارا يسميها بـ: الاستباقية، إذ أنّه لا يمتد إلى الأصل الألماني الذي يعبّر عن الأصل الأوربي، وإنما له أصول مختلفة النسقية عن جوهر أوربا، حتى ولو كان أغلب قاطنيها من أصول أوربية، وهذا ما يفسّر تقدير القوة الأميركية تقديرا كميا، ناتجا عن مدى التأثير وصدّ موجات التأثّر.

"… Have you been entrusted to manufacture terrorism and spread it to the four world concerns, or have you been entrusted to put an end to it as you have been claiming? … "[14]

الوجه المخيف لأميركا هو: الإرهاب، وكما وضحنا سابقا، فإنّ قيامها كان نتيجة إرهاب السكان الأصليين "الهنود الحمر"، وهذا ما يتماشى مع الأخذ بالاعتبار إرساء استراتيجيا عالمية، قائمة على (الشرطي) الذي يدير هذا العالم، وبالطبع أميركا لن تسمح لغيرها بأن يلعب هذا الدور، وبالتالي يكون من الجدية بمكان العودة إلى صياغة النفسية الجماعية في أميركا، تلك التي تسبق تشكل المجتمعات، وإن اعتمدنا على التصنيفات الاجتماعية

لدا علماء الاجتماع، فبالإمكان على ضوء كل هذا الأخذ بالاعتبار بأنّ الأميركيين لا يشكلون مجتمعا، وإنما هم يشكلون "تجمّعا"، يقوم على تبادل المصالح الخاصة قبل القيام والسهر على الشأن العام، وهذا ما يجعلهم يلتزمون بالأخذ بالاهتمام بما هو أقرب للفائدة السريعة دون أخذ حساب كاف للعواقب السيكولوجية الفردية، سوى إن كانت هذه الأخيرة معبّرة عن زيادة أو تجنّب الإنقاص من حجم الفوائد وكثافتها، هذا ما يجعل البعض يأخذ بالاعتبار بأنّ كل الأمور –حسب المنظور الأميركي- له فائدة ترجى منه، حتى العنف! لأنّ هذا الأخير، يُستعمل في خلق الهوة بين الأنا الأميركية والغير المختلف عنها، كما أنّه يكسب صناعة الأسلحة الكثير، إضافة إلى أنه يمهد الطريق للاستفادة لصناعات أخرى، كالأدوية والنسيج ، دون نسيان فترة عقد الاتفاقيات التي من شأنها أن تُنهي هذا الإرهاب عبر التمهيد لشركات البناء وإعادة البناء الأميركية، وبالتالي فإنّ الأميركيين هم بارعون على طريقة هوليود في حياكة كل جزء صغير من تفاصيل الفائدة التي تعود عليهم، وهي نفسها التي تجعل منهم أميركيين.

« … L'homme nait à l'état pur, ce sont ces parents qui en font un chrétien, un juif ou un mazdéen… »[15]

الفرد الأميركي هو أيضا لا يخرج عن هذه القاعدة، لكن مع فارق طفيف، وهو أنّه على غرار المنظومة العقائدية الغربية، هو لا يتم إعداده ليكون قسيسا أو راهبا، ولا رومانسيا متعطشا للأهواء الشاعرية، ولا فيلسوفا يتأمّل في الوجود أو الظواهر بمواقفه، وإنما تتم صناعته في قالب معيّن، ليتمكّن من النظر في أعماق الأمور، من أجل جني ما يمكنه من العوائد لصالحه الشخصي في المقام الأوّل، فإعداده يكون كيف يتم إنجاح تعديل الوسط البشري، والطبيعة المصاحبة قصد استثمارهما، وهذه حالة موجودة في أوربا نفسها، لكنه يتميّز على الطرح الأوربي في أنّه قابل لصناعة القوابل، تلك التي تخدم مساره الوجودي في هذه الحياة، فتكون النتيجة المادية في قلب عموم

الوصول إلى الإمساك بما هو معنوي، ليصبح هذا الأخير في خدمة الأوّل، أي أنّ التحقيق المقصود لدا الأميركي يكون من الأرض حتى يصل إلى الروح، وهو مسار يوازي ذاك الموجود على أرض بريطانيا، مع أنه يتميّز عنه بأنّه يفضل النتائج السريعة التي تجود بها الأرض على الروح، فيكون كل ما هو شاعري عند الأميركي ابنا طيّعا للمادة.

"… Fated boy, breather captain **Vere** in tone so low as be almost a whisper, what have you done! But here help me… [16]

لو استعملتُ لغة أرسطو طاليس في هذا الموضع؛ بالإمكان القول بأنّ منطق أميركا هو نفسه ما يعبّر عنه القائد فيير (**Vere**) في هذه الحالة، وبالتالي فإنّ الهدف الأساس لأميركا هو : القيادة، قيادة العالم، قيادة الطبيعة، قيادة الوجود، قيادة الأرواح.... وغيرها؛ إذ أنها تحيك سياسة "الحروب المسبَقة" من أجل التوغل في العالم تحت ستار القانون المسمى بـ: "حق التدخل" لرعاية السلم والأمن العالميْن؛ وهي تسعى إلى إدارة الوجود عبر تأسيس هرم منفصل الرأس، تكون فيه النخب الأميركية في القمة عبر وكالاتها العلمية مثل: وكالة الفضاء الأميركية للأبحاث، هيأة الصحة الأميركية ... الخ...، وهي التي تتمثل مهمتها الأساسية في جذب العقول المفكّرة والعبقرية عبر العالم إليها، كما انها تحاول التحكم في الطبيعة قصد تبرير هيمنتها وتفرّدها على الكلّ، أمّا بالنسبة للأرواح فإنّ التعامل معها على الطريقة الأميركية يأخذ بعديْن: أحدهما داخلي والثاني خارجي، الداخلي يأخذ احتمالات التخفيف من الضرر، بينما الآخر يصنع فاصلا ما بين ما هو أميركي وخلافه، وعلى هذا يصبح التعامل الروحي في القالب الأميركي يقول لمن هو من جنسه "ساعدني"، ولمن هو خارج عضويته: أنا القائد دون سِواي.

« … Quand la vérité n'est pas libre, la liberté n'est pas vraie… »[17]

لو عدتُ إلى كل ما أتى في هذه الأسطر إلى الآن، فإنّ صورة الولايات المتحدة الأميركية هي مخالفة لما هو موجود ومنصوص عليه في وثيقة الاستقلال التي توجت ثورة 1776م، وهو الذي ينص على أنّ الولايات المتحدة

الأميركية هي "موطن الأحرار"، في حين أنّ دراستي هذه هي تدلّ على أنها ليست كذلك، إنما هي أرض الإبادة، الإرهاب والسيطرة إضافة إلى المصلحة والهيمنة انطلاقا من التنشئة الاجتماعية، ووصولا إلى التركيبة الفدرالية بشكل أوسع، وبهذا يكون من اللزوم عليّ أن أعود إلى التدقيق في عبارة "موطن الأحرار"، وبالأخص في كلمة: "الأحرار"، لأنها هي بالذات ملغمة، إذ أنها لا تمثل مساحات من حقول القطن على ضفاف المسيسيبي، كما أنها لا تشمل سان أنطونيو بتكساس، ولا سان دييغو بكاليفورنيا، والسبب واضح: وهو أنّ هذه الأراضي يقطنها إما سود أفريقيا، وإما مهاجري اللاتينو، وهي فئات ظلت حتى 1968م محرومة من حقوق المواطنة الأساسية على الأراضي الأميركية، فمن هم الأحرار في وثيقة الاستقلال؟

هؤلاء الأحرار هم السادة البيض، هم المهاجرون من أوربا إلى الأراضي الأميركية، فبعد تشييد قصور لندن، انتقل الكثير من السادة إلى أراضي العالم الجديد، وبحسهم النرجسي، فإنهم أقاموا الكثير من الحروب من أجل بسط تحكمهم، وإقامة نفوذهم، فكانت أفريقيا بالنسبة لهم مصدرا للعبيد، وأميركا الجنوبية مصدرا للخَدَم، وهذا ما جعلهم يمتلكون أهم ركائز السلطة، ألا وهي: النفوذ والمال.

"… The plan of the oiler and the correspondent was for to row until he lost the ability, and then arouses the other from his sea-water couch in the bottom of the boat… "[18]

عقدة الأميركيين هي مع "القابلية"، وهم الأكفأ لصناعة أراضي قابلة لتوجيه قواربها إليهم، إنهم ينتجون أرضيات تطبيقها أوّلا، وعلى هذه الأسس، فإنّ الرؤى الأميركية تصب في نفس الاتجاه، وجهة الأخذ بالأسباب من أجل تحقيق الأهداف، وبالتالي يكون من اللزوم تسخير التقنيات كافة من أجل إنتاج قابلية عالية التأثير بما هو خارجي، وكأنّ عنصر الإبهار هو ضروري لإخراج العنصر الماهوي عن أصله، وبالتالي ينتج عن هذه العملية

مساحة سيكولوجية محطمة، تكون على استعداد لتقبّل كل ما يُملى عليها، بل هي التي تزحف إلى خطاب إملائي، يكون مستترا، ومصدره مكان واحد في هذا العالم، وهو المتمثل في أميركا.

اللعبة التي تديرها أميركا هي حول الاستعداد للتقبل، وهي عملية تتوغل إلى أقاصي الأعماق، تمس الهوية والانتماء من جهة، والأخذ بما يمكن الوصول إلى ما يمكّن القارب الأميركي من بلوغ الأرض المحطَمَة مسبقا، لأنّ الآليات الدعائية الأميركية، تلك التي تصل إلى أقاصي الأرض من تقنيات مختلفة، هي التي تجعل من النموذج الأميركي هو الأقدر على دخول نطاق المجالات التي فقدت قابليتها الذاتية، وهي على استعداد كامل لتقبل ما من شأنه حمل مخططات جديدة، مشهود لها (حتى ولو كان زورا) بالنجاح.

« … Je crois comprendre que Diestel se méfie un peu de vous. J'ai peur qu'il ne soit très méfiant. Je ne crois pas qu'il ait entière confiance en moi, mon plus qu'en n'importe quel autre membre de notre organisation… »[19]

الأميركي لا يثق في أحد، لا يثق في أيّ فئة، منظمة، وهو على ثقة بأنّه لا توجد الثقة، وهذا هو محور الاعتقاد الأميركي، وعلى هذا الأساس تحلت الروابط الإنسانية ما بين الأميركيين على شاكلة الأهمية المغذية لضرورة وجود الرابطة هذه، وهذا ما يجعل هذه الروابط موجودة لا لكونها روابط تشيّد نظما معينة، ولكن لأنها تنتج أهمية معيّنة، إنّ الوظيفة التي تنتجها الروابط الاجتماعية أو المؤسساتية هي التي تولّد روابطا حتمية. ومنه تكون الرابطة اجتماعية كانت أم سياسية، موجودة بسبب العقود المبرمة من أجل التوازن الذي يحافظ على تلك الأنظمة عينها، لكنّ دوامها هو من عنصر أساسي، ذاك الذي يستعان به في حالات الانفلات أو عند حدوث طارئ ما، وهو المتمثل في الثقة ما بين الأفراد، لكنّ الوضعية الأميركية، تلك القائمة على نسج روابط تأهب قصوى؛ هي التي تنتج آثارا سلبية من ناحية، إذ أنها معرضة للزوال في أية لحظة، في حين ان هناك آثارا ايجابية من ناحية ثانية، وهي

تجسد الحافز نحو التطوير بالإبقاء على الانتباه والحيطة الحذرة على الدوام، تلك التي تجعل الأهداف، مهما كانت صعبة بعيدة عن المستحيل. كما أنه من المهم الإشارة إلى أنّ انعدام الثقة، هذا الذي يحرّك الآلة الأميركية الداخلية بنحو ايجابي، وهو نفسي بالدرجة الأولى، فإنّه يجعل من سكان العالم ينظرون بطريقة حذرة إلى الأميركيين، إذ أنّ فقدان الثقة ما بين الجانبيْن يصب في صالح أميركا، لأنّ هذه الوضعية تجعل شعوبا بأكملها في احتراس مفتوح، مما يجعل وقتا ثمينا يضيع في غير جدوى. وهو ما يعبّر عنه الفيلسوف الجزائري مالك بن نبي قائلا: "... ففي تقرير للجنة الفرعية للمساعدات العسكرية (الخارجية) التابعة لمجلس النواب في الولايات المتحدة الأميركية، تكلم اللواء في البحرية (هاينز). إنّ الوثيقة (السرية) لم تسرب إلا من أجل أن يأتي مفسروها الجزائريون فيوصونا مرة أخرى بالحذر – الكلمة أصبحت شائعة اليوم – وذلك بإعلامنا بأنّ اللواء الأميركي يحتفظ لنا بجرو من كلبته. وأوجز صديقي ما أعلمني به مكررا علي بأنّ ذلك كان خطيرا جدا..."[20]

فقدان الثقة في الأميركي، يجعل الأميركي نفسه يلحن علاقاته بغيره كما يشاء، وعلى هذه القاعدة تمكنت أميركا من بناء صورة مرعبة في عيون الآخرين، فأدى ذلك إلى وصولها إلى حدّ أنّ الكثيرين عبر هذا العالم ينظرون بطريقة متوجسة إلى الولايات المتحدة الأميركية، على أنها إمبراطورية عظيمة لا يمكن إزعاجها ببضع كلمات، لأنّ واقع الحال هو لصالح أميركا، خاصة في ظلّ ازدياد المسافة طولا ما بين أميركا وباقي المناطق في هذا العالم، هذه الوضعية مكّنت الولايات المتحدة الأميركية من استعمال اسمها ومكانتها قبل استعمال قدراتها التأثيرية من مال وتقنيات علمية–صناعية أو آلات حربية.

ما يحرّك أميركا هي التقنية لأهداف اقتصادية محضة، ما يحرّك الدعاية، السياسة، الروابط المختلفة، الحرب النفسية والاستراتيجيات الدفاعية منها والهجومية هي ذات منطق "إنّه الاقتصاد أيها الغبي" كما جاء على لسان أحد الباحثين العرب[21].

لا مكان للعواطف، للمعتقدات ولا للوجدان أمام المال التسلطي في عمق العقلية الأميركية، "... بما أنّ التجارة لا تعرف حدودا وطنية، وبما أنّ المصنِّع يريد أن يكون العالم له سوقا، فإنّ عَلَمَ بلاده يجب أن يتبعه، وأبواب الأمم التي لا تُفتَح في وجهه تُخلع، وعلى وزراء الدولة أن يحموا الامتيازات التي يحصل عليها الماليون، حتى وإن وجب المسّ بسيادة الأمم المناهضة. ويجب أن تُحدَث المستعمرات أو يحصل عليها، بحيث لا تترك ولا تهمل أيّ زاوية من العالم... ".

العقل الأميركي هو الذي يدير هذه المنظومة العملاقة المسماة بـ: أميركا (USA)، معياره الأرض، ووسائله الإلهام الدائم والدؤوب بالتقنيات، مشروعه على الصعيد الداخلي قائم على "التداول" والأخذ بالإبداع، وعقيدته الخارجية ترتكز على مقوّمات زرع الهيبة واستثمار كافة الاحتمالات، أما فيما يخصّ محرّك هذا العقل، فإنه يكمن في نقطة لم يستطع ولا أيّ نوع من العقول قبله من تجاوزها، ألا وهي: الخوف، وهي النقطة التي تصنع العتبات، فاستبدلها العقل الأميركي بـ: الطموحات.

"... It brought back to Maisie his confession of fear of her mother, it made her stepmother then second lady about whom he failed of the particular virtue that was supposed most to mark a gentleman... "

الحقيقة الأميركية تتضمن كل أجزاء الحياة البشرية، هي تشتمل أيضا على نقاط فراغ، لكنها تستبعد منطق الخوف أو الرهبة، وهذا ما يمثل دافعا أساسيا للعقل الأميركي الذي يهوى المغامرات المحسومة لصالحه، إنّه يختلف عن العقل الأوربي الذي خاف من الدين في وقت ما، وخاف من تقاليد البرجوازية في زمن ما، وهو يختلف عن العقول الشرقية التي تخاف من عقائدها الأسطورية أو الدينية، تلك التي ترسم لها الحدود والنهايات؛ إنّ العقل الأميركي لا نهائي، هو يجسّد الآفاق المفتوحة، ويسير وفقا لضرورتها، من أجل تحقيق الرفاهية الملموسة، فهو لا يعترف بالوعود المؤجلة التي يرفعها الإيمان، ويسير على ضوئها الأتباع والرهبان.

هوامش:

[1] msmezouar@live.com

[2] روجيه غارودي، الولايات المتحدة الأمريكية طليعة الانحطاط (كيف نجابه القرن الواحد والعشرين)، منشورات ANEP، 2003م-الجزائر، ص:35.

[3] المرجع نفسه، ص: 35.

[4] المرجع نفسه، ص: 35.

[5] المرجع نفسه، ص: 36.

[6] المرجع نفسه، ص: 36.

[7] المرجع نفسه، ص: 36.

[8] المرجع نفسه، ص:36

[9] المرجع نفسه، ص:37.

[10] المرجع نفسه، ص: 37.

[11] المرجع نفسه، ص: 37.

[12] المرجع نفسه، ص:37-38.

[13] Friedrich Nietzsche, Ainsi parlait Zarathoustra, la symphonie-Bierut, p318

[14] M. Said Ramadan Al-Buti, Words on occasions, Horizon of knowledge – Damascus, p81

[15] Malek Bennabi, Naissance d'une société, Smar édition et distribution-Algérie, p84.

[16] Herman Melville, Billy Budd, Flites edition – Algeria, p92

[17] Amin Zaoui, le dernier juif de Tamentit , Barzakh-Alger , p41

[18] Stephen Crane, The open Boat, Flites edition-Algeria, P50

[19] James Hadley Chase, Il fait ce qu'il peut, Gallimard France, p113.

[20] مالك بن نبي، من أجل التغيير، دار الوعي-الجزائر، ص: 101.

[21] محمد أبو رامي الشعيبي: خبير في الشؤون الجيوسياسية.